الفصل الخامس

الأجراس الذهبيـــة

ينص القانون الكهنوتى على أن يصنع رداء الكاهن وفقا للوصـــف التالى : « وتصنع جبة الرداء كلها من أسمانجونى ، وتكون فتحة رأسها فى وسطها ويكون لفتحتها حاشية حواليها صنعة الحائك ، كفتحة الدرع يكون لها لا تشـــق • وتصنع عـــلى أذيالها رمانات من أســـمانجونى وأرجوان وقرمز على أذيالها حواليها ، وجلاجل من ذهب حواليها • جلجل ذهب ورمانة جلجل ذهب ورمانة على أذيال الجبة حواليهـــا • فتكون على هرون للخدمة ليسمع صـــوتها عند دخوله الى القدس أمام الرب عند خروجه لئلا يموت » (١) •

فلماذا كان يتحتم على الكاهن أن يرتدى هذا الثوب البنفسجـــى الذى تتدلى أهدابه المطرزة بثمار الرمان والأجراس التى ينبغى أن يسمع صليلها عندما يدخل الكاهن المـــكان المقدس أو يخرج منه ؛ والامات ؟ ان أكثر الاجابات احتمالا فى صحتها عن هذا السؤال هو الاعتقاد فى ان صليل الأجراس المقدسة يطرد الأرواح الشريرة الحاسدة التى تقبع عند باب المـــكان المقدس على استعداد لأن تنقض على الكاهن المزين

---

(١) سفر الخروج ، ٢٨ : ٣١ الى ٣٥ .
وكلمة اسمانجونى التى تترجمها الترجمة الانجليزية المعتمدة الى كلمة « أزرق » ؛ تعنى الأزرق الارجوانى . وهى تتميـــز عن الكلمة الاخـــرى « أرجوان » التى تعنى اللون الأرجوانى الضارب الى الحمرة ، ومن ثم ترجمنا الكلمة الأولى الى اللون « البنفسجى » .
(المؤلف)

بأغلى زينة وأن تحمله معها ، عندما يخطو فوق عتبة المكان المقدس ليقوم بواجبه الدينى • وأقل ما يمكن أن يقال بصدد هذا الرأى الذى لقى رواجا بين الدارسين المحدثين ، هو أن هناك أمثلة شبيهة به وتدعمه فى قوة • فقد كان الرأى الشائع منذ العصور القديمة وما قبلها ، هو أن الشياطين والأشباح تهرب عند سماع صوت ينبعث من معدن سواء أكان هذا الصوت صوت صليل من الأجراس الصغيرة أو قعقعة متواصلة طنانة تنبعث من الأجراس الكبيرة . أو كان صليل الصنج الحاد ، أم دوى الطبول ، أم صلصلة وقعقعة أطباق من البرونز أو الحديد ، عندما يرتطم بعضها ببعض أو عندما تضرب بمدق أو بعصى• ومن ثم فقد كانت العادة المتبعة عند القيام بتطهير شخص من الأرواح الشريرة أن يدق كاهن القداس جرسا يحمله فى يده ؛ أو أن يعلق مجموعة من الأجراس فى ردائه بحيث تصلصل عند كل حركة يقوم بها • والأمثلة التالية توضح قدم هذه المعتقدات والممارسات وانتشارها على نطاق واسع ••

يخبرنا « لوسيان » ان الأشباح تهرب عند سماع صوت يصدر عن معدن من البرونز أو الحديد • وهو يقابل بين الشعور بالنفور الذى يحدثه رنين هذه المعادن على الأشباح ، وسحر رنين النقود المعدنية على النساء اللاتى ينتمين الى طبقة بعينها • ففى روما عندما كان شبح الميت يقوم بزيارته السنوية الى مسكنه القديم فى شهر مايو ، وكان يستمتع بتناول طعام رخيص من حب الفول ، تعود أن يقوده ساكن البيت الى الباب ويتوسل اليه قائلا : « لترحل الآن يا شبح والدى » • ثم يؤكد أمره أو طلبه برنين يصدر من معدن برونزى • ولم تنقرض مثل هذه الأفكار التى مؤداها أن الأشباح تكره سماع الرنين الصادر من المعدن بانتهاء عصر الوثنية ، بل عاشت فى أقوى صورها فى ظل المسيحية فى العصور الوسطى بعد ذلك بزمن طويل • فالعالم المسيحى المفسر « جون تزتزيس » يخبرنا أن رنين البرونز يؤثر على الأشباح تأثير نباح الكلب عليها • وهذا الرأى لم يلق معارضة سوى من قبل قليل من الرجال المفكرين ••

أما فى عصـــور المسيحية ، فقـــد كان أكثر الأصـــوات مقتا الى آذان الشياطين والعفاريت هو الصـــوت الجميل الوقور الذى يصـــدر من أجراس الكنائس • ولقـــد أعلن مجلس مدينة كولونيا المحلى رأيا رفعه الى الأجداد ، وهو أن الشياطين تفزع عند سماع صوت الأجراس التى تدعو المسيحيين الى الصـــلاة ، فترحل • وكذلك تفعـــل أرواح العواصف وقوى الرياح • على أنه يبدو أن أعضـــاء المجلس نفســـه كانوا يميلون لأن يعزوا هـــذا العمل الطيب الى ورع المؤمنين وشفاعتهم أكثر مما يعزونه الى صليل الأجراس • ومرة أخرى يشـــير كتـــاب الطقوس الدينية الذى عرف باسم « كتاب الأسقفية الرومانى » ، الى مزايا جرس الكنيسة أينما سمع صـــوته ، ألا وهى قدرته على طرد القوى الشريرة وأرواح الموتى المتمردة الهائمة ، وكل أرواح الزوابع• كما ذكر « دوراندوس » العالم الشهير بالقوانين الكنيسية الذى كان يعيش فى القرن الثالث عشر فى بحثـــه الشهير عن الطقوس الدينيه الذى انتشر على نطاق واسع ، أن « الأجراس تدق فى تتابع حتى تفزع الشياطين وتهرب • فعندما تســـمع هـــذه الأشباح طبـــول محارب الكنيسة ـــ أى الجرس ـــ يدب الرعب فيها ، تماما كما يدب الرعب فى نفس أى متغطرس عندما يسمع فى أرضه صـــوت طبول ملك قـــوى يغزو بلاده •• وهـــذا هو السبب كذلك فى أن الكنيسة تدق أجراسها عندما تهب عاصفة حتى تخاف الشياطين عندما تسمع صـــوت طبـــول الملك الأبدى أى الأجراس فتهرب وتكف عن اثارة العاصفة » • وقد كتب حول هذا الموضوع عالم الآثار الانجليزى القائد «فرنسيس جروسى» ، صـــديق الشاعر « برونز » يقـــول : « ان نواقيس النعى كانت تدق لغرضين : أولا ابلاغ المسيحيين الأتقياء برحيل روح الميت ، وثانيا طرد الأرواح الشريرة التى تقف عند سرير الميت وحول بيته مستعدة لأن تقبض على فريستها ، أو على الأقل تناوشها وهى فى طريقها لعـــالم الأرواح • فعندما تدق الأجراس تظل الأرواح الشريرة بعيدة عن شبح الميت (لأن « دوراندوس » يخبرنا أن الأرواح الشريرة تفزع كل الفزع من صوت الاجراس) • فى حين تنطلق روح الميت كالارنب المطـــارد

وتفوز بالهروب ، أو تفوز بما يسميه الرياضيون بحقها القانونى • وربما كان ذلك فرصة مناسبة للأرواح لأن تدفع ثمنا غاليا فى مقابل قرع أجراس الكنيسة لها . وبخاصة بعد أن أعفيت من القيام بعمل اضافى•ذلك أنه عندما تصلصل الأجراس . يتحتم على الأرواح الشريرة أن ترحل ، فى حين يأخذ روح الميت الفقير فى التحرك عندما يخفت صليلها • وفضلا عن ذلك فان عددا كبيرا من المصلين يصلون من أجل الميت كلما سمعوا أصوات الأجراس تدق عن بعد • وقد صور « و • دى ويردى » مقت الأرواح الشريرة لسماع الأجراس فى « الأسطورة الذهبية » فقال : « لقد قيل ان الحيرة تنتاب الأرواح الشريرة التى تسبح فى الهواء عندما تسمع الأجراس • وهذا هو السبب فى أن الأجراس تدق عندما يرعد الجو . وعندما تهب عاصفة أو زوبعة حتى تبتعد الأرواح الشريرة وتهرب ، وعند ذاك تخمد العاصفة » ••

وكذلك صور « لونج فيلو » فى الرواية الشعرية « للاسطورة الذهبية » . هذه الخرافة تصويرا مؤثرا جميلا • ففى مقدمة قصيدته صور برج كاتدرائية ستراسبورج فى الليل وقد ثارت من حوله الزوابع ، فى الوقت الذى أخذ الشيطان وقوى الرياح تحلقان فى الهواء حول البرج وتحاولان أن تمزقا الصليب وتسكتا صليل الأجراس المزعج : فقال :

لو سيفر ، أهبط ، أهبط
حلق الى أسفل
امسك الأجراس المصطخبة
وحطمها حتى يسمع رنين اصدامها بالرصيف
اقتلعها من برجها الطائر
أيتها الأصوات •
ان كل صخبك
لا قيمة له

فلقد مسحت كل الأجراس بالزيت
وعمدت بالميـــاه المقدسة
وهى تتحـــدى كل ما لنـــا من قوة

وفضلا عن هـــذا ، فان الزوبعة العاصفة وجهنم المعولة قـــد استمعا الى صوت الأجراس الوقور • وفى هذا يقول الشاعر :

Defunctoo ploro
Pestem fugo
Festa decora

كما يقول مرة أخرى :

Funera plango
Fulgura frango
Sabbata pango (1)

وفى النهاية رضخت الشياطين الحائرة لأن تنزع فى الظـــلام ، تاركة وراءها الكاتدرائية التى لم تكن قد أصابها أذى ، وقـــد ســـطع بداخلها الملاك ميخائيل شاهرا سيفه يتلألأ بلونه الذهبى والقرمزى على ألواح زجاج النوافذ ، بينما تقتفى الموسيقى المنبعثة من الأرغن وأصوات غناء الكورس أثر الشياطين • وهى تردد :

Noctc surgentes
Vigilimus omnes (2)

ويمكننا أن ننتهى من ذلك الى أن طرد الأرواح الشريرة يعـــد السبب الأول والأساسى من بين السببين اللذين يعزوهما « جروسى » لقرع أجراس النعى • والسبب الثانى الثانوى هو دعوة المؤمنين المصلين للصـــلاة من أجل الروح التى أوشـــكت على أن تصـــعد الى بارئها •

---

(١) ومعنى هذا : اننى ابكى هؤلاء الذين ارتاحوا من الحياة واطرد الوباء واحس الأعياد الدينية اننى انوح على الاموات واخفت الاضواء وارعى يوم السبت يوم الراحة .

(٢) أى .. الأرواح تصعد فى الليل ونحن نرقبها جميعا .

وعلى أى الحالات فانه يبدو أن الناقوس كان يقرع على الدوام فيما مضى . حينما كان يبدو لأقرباء المريض أن مريضهم قـد أخـذ يعانى سكرات الموت . ويتضح هـذا من خلال فقرات متعددة استطاع أن يكشفها المختصـون بالدراسات القـديمة بين كتابات الكتاب القدماء . وقد أخبرنا « استييس » فى كتابه « تشريح المساوىء » عن النهاية المؤلمة التى حدثت فى « لينكولن شاير » لشخص وثنى كان يكثر من القسم بالايمان فقال : « وعندما بدأ للناس أن نهايته قد قربت ، دقوا النواقيس . فلما سمع هـذا الرجل النواقيس تناديه ، اندفع من سريره فى قوة وهو يقول : « بحق الرب انه لن يأخـذنى بعد » . وعند ذاك تدفق الدم من أطراف أصابع قدميـه وأطراف أصابع يديه ومن معصمه ، ومن أنفـه وفمه ، ومن مفاصـل جسمه ، وأجـزاء أخرى منه . ولم يكف الدم عن التدفق حتى خرج كل الدم من جسمه ، وبهـذا أنهى هـذا الآثم حياته الزمنية » . وعندما كانت السـيدة « كاترين جراى » تحتضر وهى أسيرة فى القلعة ، وأدرك حاكم القلعة أن السجينة على وشك أن تتخلص من أسره بدون ترخيص ملكى ، قال للسيد « بوكيام » : « أليس من الأفضل أن نرسل الى الكنيسة لتدق نواقيسها ؟ » . أما السيدة فقـد أخـذت تصلى عندما شعرت أن نهايتها قـد اقتربت ، وتقول : يا الهى ، اننى أودع روحى بين يديك . سيدى المسيح هيا استقبل روحى » . فصليل النواقيس كان بالنسبة لها ، كما كان بالنسبة لغيرها أنه « قضى الأمر » . Nunc dimittis ومرة أخرى تحـدث كاتب فى النصف الأول من القرن العشرين عن مسيحى يحتضر وقد كبت عواطفه : « لو مد عمره بعض الوقت ، لكان فى وسعه أن يستمع الى أجراس النعى فى هدوء » .

ومما يرجح أن الغرض الحقيقى من أن دق أجراس النعى هو طرد الكائنات الشريرة التى تحلق فى الهواء متخفية عن الأنظار وليس مخاطبة الناس من بعـد ودعوتهم للصـلاة على الميت ، ذلك الشـكل البدائى الذى احتفظ فيه بتلك العادة فى كل مكان حتى عصرنا الحاضر .

فعندما يمرض شخص ويصـــل الى مرحلة الاحتضار فى بعض جهات جبال « ايفـــل » أى فى الحى الذى يقع فى منطقة الراين البروسية ، فان أصدقاءه ، وفقا للعادة المتبعة ، يدقون جرسا صغيرا يمسكونه فى أيديهم ، ويسمى جرس البركة • « وذلك لكى يبعدوا الأرواح الشريرة عن المحتضر » • وقد قيل ان العادة التى كانت متبعة فى « نيوسول » فى شمال هنغاريا ، أن يدق جرس صغير يحمل فى اليـــد عندما تقترب نهاية شخص ، « حتى تظل روحه المفارقة له تحلق بضـــع دقائق فى العالم الأرضى بجانب جسدها المسجى » • فاذا لفظ أنفاسه ظل الجرس يدق بعيدا عن الجســـد بعض الشىء ، ثم يدق خارج باب حجرته ثم حـــول بيته • « وبذلك يرافق صـــليل الجرس الروح وهى فى طريق رحلتها » • ثم ترسل بعد ذلك اشارة الى القندلفت لكى يأخـــذ فى دق نواقيس كنيسة القرية • ويقال ان مثل هـــذه العادة كانت تنتشر فى جبال « غابة بوهيميا » التى تفصـــل بوهيميا عن بافاريا • والدافع الذى يتـــدم تفسيرا لتلك العادة وهو الرغبة فى اعاقة رحيـــل الروح لبضـــع لحظات عن طريق دق الأجراس ذات الصوت الرقيق ، لا يمكن أن يكون الدافع البدائى بعينـــه ، لمـــا يحتوى عليه من احساس رقيق للغاية • وانما الدافع الأساسى وراء ذلك بدون شـــك ، كما هى الحال فى العادة المشابهة المنتشرة فى جبال « ايفـــل » ، هو ابعاد الشياطين التى يمكن أن تخطف الروح المسكينة فى تلك اللحظة الحرجة • ولا يأخذ ناقوس برج الكنيسة الكبير فى الدق ، الا بعد أن يؤدى الجرس الصغير وظيفته الخيرة ، وبذلك يرافق صـــوت الجرس الكبير الرنان كذلك ، الروح الراحل فى رحلته الطويلة فى أرض الأرواح كما لو كان ملاكا حارســـا ••

وفى فقرة شهيرة من كتاب دانتى « المطهر » قرن دانتى بين فكرة صليل جرس النعى وصليل ناقوس المساء الذى يسمعه المسافر فى البحر من بعـــد ، من حيث أن الناقوس الأخـــير يعلن كذلك نهـــاية يوم أو نهاية رحلة الشـــمس وهى تتلاشى فى الســـماء القرمزية • وليســـت

أبيـــات « بايرون » التى يقلد فيها أبيات دانتى ، أقـــل شهرة من الأبيات الأخيرة • فبايرون يقول :

يا للساعة الرقيقة التى توقظ الرغبة وتذيب القلوب
هؤلاء الذين يبحرون فى البحر فى اليوم الأول
عندما يفترقون عن أصدقائهم الأعزاء
ويا لها من ساعة تملأ قلب الحاج بالحب فى رحلته
عندما يعلن ناقوس المساء بدء الرحلة
وكأنه يبكى فناء يوم راحل •

وليس تعبير الشاعر « جراى » عن هـــذه الفكرة أقـــل جمالا . وهو يصـــور صليل ناقوس الغروب فى المساء وصـــدى صـــوته بين أشجار الطقوس والدردار الجليلة فى ساحة كنيسة انجليزية ، عنـــدما يقـــول :

لقد نعى ناقوس المساء ذلك اليوم الراحل

حقا ان أصـــوات قرع نواقيس الكنيسة فى مثل هـــذه الأوقات ، وفى هـــذه الأمكنة يثير احساسا يمتلىء بالرهبة والتأثير فى النفس • فهو يرن فى الآذان كصـــدى عالم اختفى من الوجود ، على حد تعبير « فراودى » وقـــد عبر الشاعر الأمريكى « بريت هارتى » أجمل تعبير عن هـــذا الاحساس ، عندما سمع ، أو بالأحرى تصـــور أنه سمع ، ناقوس صـــلاة التبشير يدق فى المساء بجانب ارسالية أسبانية تقـــع فى دولوريس فى كاليفورنيا ، وقد هجرت منذ زمن • فهو يقول :

يا أجراس الماضى ، التى لا تزال
وموسيقاها المنسية منذ زمن ، تملأ الفضاء الشاسع
وتلون شفق الحاضر بلون رومانسى
اننى أسمع نداءك ، وأرى الشمس وهى تختفى
على الصخرة ، وعلى الموجة وعلى الرمال

عندما تحيط أصوات الارسالية التى تقع عند الشاطىء
بالأرض الكافرة وتختلط بهـا
فى دائرة سحرك
لا نعثر على أية آفة أو عفن فطرى
ولا يمر القلق العنيف أو الشهوة أو الطموح الدنىء
بهـذه الأسوار الشاهقة
اننا نشق طريقنا عبر أمواجك الطويلة الممتدة
ونتراجع نتلمس الماضى الأسبانى
وأبقى مع حلم الغروب
أيتها الأجراس الرهيبة ، يا من تستغيث أجسامها المقدسة
بايمان القـدماء
ويا أيتها الأجراس المجلجلة التى تهدهد موسيق الشفق
ان الروحانية تنطوى •

وقد عبر « رينان » الذى خفف من غلواء أفكاره الدينية المتشككة الادراك الهادىء للاديب الفنان ، عن مثل هـذا الاحساس بقـوة الأجراس التى تمس القلب ، وتناغم العقـل بالأفكار الخاشعة ، فقال معترضا على الاتجاه العقلانى المجدب الذى اشتهر به عالم الأديان الألمانى « فوبرباخ » : « ألا ينبغى على « فوبرباخ » أن ينغمس ، من أجل الرب ، فى منابع أكثر غنى من مجرد الاحساس المتعالى المنتفخ بجرمانيته • آه لو أنه جلس عنـد آثار فلسطين أو جبل كوليان لسمع أصـوات الأجراس الأبدية وهى تظل تصلصل حتى يخفت رنينها على التـلال المهجورة التى كان الرومانيون يسكونونها يوما ما • أو لو أنه جلس على شاطىء الليـدو المنعزل ، واستمع الى صليل أجراس كنيسة القديس مارك وهى تخفت عبر البحيرة الضحلة ، ولو أنه رأى «أسيس» وعجائبها السحرية وكنيستها المزدوجة ، ورأى أسطورة المسيح الثانى الذى ظهر فى العصـور الوسـطى مصـورة بريشـة « سيمابو » و «جيوتو» • ولو أنه أشبع مرآه بالمنظر الساحر لعذارى «بيروجينو» •

ولو انه رأى فى سانت دومنيكو فى سينا القديسة كاترين فى وجـدها الالهى • لو أنه فعل هـذا لمـا سخر السيد « فوبرباخ » مما يقرب من نصـف الشعر الانسانى . ولمـا صرخ كما لو كان يطرد عنه شبح يهوذا الاسخريوطى » ••

على أن هـذه الأمثلة التى تشير الى التأثير العاطفى لأجراس الكنائس على الناس . لا ينبغى أن تبتعد عن البحث الفولكلورى لهذا الموضوع • فنحن لا نستطيع أن نفهم أفكار الناس ما لم نتعمق أعماق مشاعرهم وعواطفهم التى تستمد منها هـذه الأفكار • وأقـل ما يمكن أن نفعله هو أن نفصلهما فى مجال الدين • ذلك أنه ليست هناك حواجز صـارمة بين الأفكار العقلية ومشاعر الجسـد من ناحية . واحساسات القلب من ناحية أخرى . وهى تميل جميعا لأن تذوب ويختلط بعضها بالبعض الآخر فى موجات عاطفية • وليست الموسيقى وحـدها هى التى تستطيع أن تحتفظ بموجات هـذه العواطف . وانما بوسـع أشياء أخرى وان كانت قليلة . أن تحتفظ بتدفقها فى قوة • ولم يحاول أحـد حتى اليوم أن يقوم بدراسـة الفولكلور من جانبه العاطفى . وانما ركز الباحثون أبحاثهم حول الجانبين المنطقى والعقلانى ، أو بتعبير آخر يفصـله بعض الباحثين حول عناصره اللامنطقية واللاعقلانية • ولكننا يمكننا أن نتوقع بدون شك استكشافات قيمة من خلال الدراسات المستقبلة حول أثر العواطف فى تشكيل مصير الانسان وعاداته ••

ولقد كان الناس منذ العصور الوسطى حتى العصور الحديثة . يحبون الاستماع الى صليل نواقيس الكنائس ، اذ كانوا يتصـورون أن السحرة والمشعوذين يحتشدون فى صـور غير مرئية فى الجـو ليحتالوا بحيلهم الرخيصة على اصـابة الانسان والحيوان على السواء بالشرور . وقد كانت هناك أيام معينة فى أثنـاء السنة يعقـد فيهـا هؤلاء الأشرار اجتماعاتهم غير المقدسـة أو السبوت ، كما كان يطلق عليها • وبناء على ذلك فقد كانت الأجراس تقرع طوال الليل فى بعض الأحيان فى مثل هـذه الأيام حيث ان السحرة المشـعوذين يكونون

منشغلين فيها تحت ستار الليل بانجاز أعمالهم الجهنمية • ففى فرنسا على سبيل المثال ، كان الناس يعتقدون أن السحرة يهيمون فى الهواء فى ليلة القديسة « أجاثا » بصفة خاصة ، وهى الليلة التى توافق الخامس من شهر نوفمبر • ومن ثم أصبح من المعتاد أن تدق أجراس الكنائس والأبرشيات طوال الليل حتى تطردهم • وقد قيل أن هذه العادة نفسها تنتشر فى بعض بقاع أسبانيا • ومن بين الأيام التى يجتمع فيها السحرة كذلك ليلة عشية منتصف الصيف ، ولهذا فان أجراس « روتنبورج » فى « سوابيا » تظل تدق من الساعة التاسعة مساء فى هذه الليلة حتى الفجر ، بينما يغلق الناس المؤمنون نوافذ بيوتهم اغلاقا محكما ، بل انهم يسدون الشقوق حتى لا تتسرب الى بيوتهم هذه الشخوص المفزعة • وقد تعود السحرة كذلك أن يجتمعوا فى « الليلة الثانية عشرة » ، وليلة « القديس والبورجى » ، وعشية أول مايو • ومن ثم أصبحت العادة فى هذه الأيام أن يقوم الناس بطرد هؤلاء الأشرار الذين يمارسون شرورهم فى صورة غير مرئية ، عن طريق قرع أجراس وضرب سياط يمسكونها فى أيديهم ••

ولكن على الرغم من أن السحرة والمشعوذين يفضلون مواسم معينة من السنة للاحتفال بعربدتهم الدنسة ، فانه لا تمر ليلة لا يقابلون فيها عابرى السبل ، وذلك فى أثناء تجوالهم بحثا عن أشخاص يؤذونهم بشرورهم ، كما لا تمر ليلة لا يحاولون فيها اقتحام بيوت المؤمنين وهم نائمون فى قلق • ومن ثم كان ينبغى أن يفعل شىء لحماية المواطنين السالمين من ازعاج هؤلاء الأشرار لهم فى أثناء الليل • ولهذا فان الحراس المكلفين بحماية الشوارع من حدوث الجرائم العادية ، يلقى على عاتقهم تبعة اضافية ، وهى طرد القوى المفزعة التى تنتشر فى الظلام فى الجو ، وتتجول كالأسود الضارية التى تبحث عن فريستها • ولكى ينجز حراس الليل مهمتهم ، فانهم كانوا يستخدمون نوعين مختلفين من الأسلحة الروحية التى تتفق فى درجة فعاليتها • أما السلاح الأول فهو الناقوس ، وأما السلاح الثانى فهو الترنم بالأدعية المباركة•

واذا كان صوت الناقوس يقلق النيام فى الحى ، فان لحن تعويذة البركة كان يريحهم . اذ كانوا يتأكدون ، كلما غطوا فى النوم أن هذا هو السبيل الوحـــد لأمنهم على حـــد تعبير ملتون ، عندما قال :

فتعويذة رجل الجرس التى تصـــل الى آذان النائمين
تبارك الأبواب من شرور الليـــل

وكثيرا ما كانت أنشودة البركة التى تحطم ســـكون الليل تصاغ فى شعر ليس له مثيل فى رداءته . بحيث أصـــبح شعر رجل الجرس مضرب الأمثال • وفحوى هـــذا الشعر يمكن استخلاصه من سطور قالها « هينيريك » على لسان أحـــد جمهور الحراس الذى عانى الشاعر من أدعيتهم الليلية بكل تأكيـــد ، كما عانى منهم « ملتون » كذلك • وهـــذه الأبيـــات هى :

رجـــل الجرس
يخلصك من ضجيج المحنـــة
ومن القتـــلة
ومن كل سوء يمكن أن يزعجك
حتى تنام نوما هادئا
وهو يبعث فى نفوسكم الاطمئنان
ويبعد عنكم الأشباح عندما تنامون
بعد الساعة الواحـــدة أو ربما بعد الساعة الثانية
سادتى • طاب يومكم جميعا

ويخبرنا أديسون كيف أنه استمع الى رجل الجرس وهو يبـــدأ عظاته عند منتصف الليل باستهلال مألوف ظل يعيده على مسمع سامعيه فى كل ليلة من ليالى الشتاء طيلة عشرين عاما • وهذا الاستهلال هو :

أيها الرجل الفانى ، يا من ولد فى المعصـــية

وعلى الرغم من أن هـذه الخطبة المزدرية بالانسان يمكن أن يكون لها صـدى ورع فى نفس أديسون ، الا أنه يبدو أنها كانت تثير مشاعر الغضـب وازدراء النفس فى صـدور الناس العاديين الذين كانوا يستيقظون من سباتهم فى الهزيع الأول من الليل ليذكرهم رجل الجرس فى ساعة غير مستحبة بعقيدة أصل الشرور ..

لقد رأينا ان أجراس الكنائس ، كانت تقرع فى العادة ، وذلك من وجهة نظر كتاب العصور الوسطى ، ساعة حدوث العواصف المرعـدة بقصـد طرد الأرواح الشريرة المثيرة للعواصـف . وقـد ألف كاتب ألمـانى عجوز عاش فى القرن السادس عشر وكان يعـرف باسـم « ناوجورجوس » ، قصـيدة ساخرة حـول تأثير مثل هذه الخزعبلات على الكنيسـة فقال :

اذا أرعـد الرعـد ، وثارت العواصف العاصفة
اعتقد الناس لشدة تعجبنا ، أن الأرواح الخسيسة تسببها ،
هؤلاء الذين لا دين لهم ، ولا ثقـة فى أى شىء
ولهـذا يقرع الكهنة النواقيس من أعلى أبراج الكنيسة
فتصلصل بصـوت أعلى من صوتها العادى
حتى يكف الرعـد فى السماء المظلمة
لأنهم يعتقدون أن القوة التى تسكن هـذه الأجراس المسيحية
تقـدر على اسكات العاصـفة والرعـد

ولقد رأيت بنفسى ذات مرة فى « نوم بورج » ، وهى مدينة تقع على شاطىء تورنج

جرسا يفتخر باللقب الذى أطلق عليه ويقول :
« اسمى مارى »
اننى اسكت الرعد العاصـف بصوتى وكذلك الزوابع وكل شرير يمـزح » ،

ولا عجب ؛ اذا كانت الأجراس تقوم بهذا العمل ، أن يلجأ اليها المتدينون عندما يسقط البرد أو تثور زوبعة أو عاصفة أو يرعد الرعد أو يبرق البرق العنيف فى كل مكان » ..

وقد قيل ان أجراس الكنيسة كانت تقرع فى كل أنحاء ألمانيا فى العصور الوسطى فى أثناء حدوث عاصفة مرعدة . وان القندلفت كان يتلقى ضريبة خاصة من الأبرشيات لقرعه الأجراس فى هذه الظروف العاجلة . وقد ظلت هذه الضريبة تدفع حتى نهاية منتصف القرن التاسع عشر . ومثال هذا أن القندلفت فى « يوبار » التى تقع فى « التمارك » ، كان يضطر الى قرع نواقيس الكنيسة عندما تهب عاصفة مرعدة . وفى مقابل هذا كان يتسلم من كل فلاح خمس حزم من الذرة ، لما كان يتكلفه من أعباء فى انقاذ المحصول من التلف . ويخبرنا كاتب ألمانى عن هذه العادة التى كانت تنتشر فى « سوابيا » فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، « أن الأجراس كانت تدق فى معظم الأبرشيات الكاثوليكية بخاصة تلك التى تقع فى شمال « سوابيا » عندما تهب عاصفة مرعدة ، وبذلك يكف البرد عن السقوط ولا تحدث خسائر من البروق . وكثير من الكنائس تمتلك أجراسا خاصة لهذا الغرض . فدير « باين جارتن » الذى يقع بالقرب من « ألت دورف » يملك جرسا يطلق عليه اسم « ناقوس الدم المقدس » . ويدق هذا الجرس فى أثناء هبوب عاصفة مرعدة . وفى « فور ملنجن » تدق الأجراس على جبل « ريميجيوس » . فاذا قرع الناس هذا الناقوس بمجرد احساسهم بحدوث عاصفة رعدية ، فان البرق لا يتهددهم فى أى مكان فى الحى . على أن القرى المجاورة ومن بينها « يسنجن » على سبيل المثال ، لا تسعد بقرع النواقيس ، لأنها تعتقد أن المطر يختفى مع اختفاء العاصفة الرعدية . أما فيما يختص بمدينة « كونستانسا » بصفة خاصة ، فنحن نقرأ أن نواقيس كل الكنائس والأبرشيات لا فى المدينة وحدها وانما فى الأماكن المجاورة كذلك ، كانت تقرع عندما تهب عاصفة رعدية . ونظرا لقداسة هذه

النواقيس ، فان الناس يعتقدون أن أصواتها تحميهم كليـــة من أذى البرق • حقـــا ان غير قليل من الناس يساعدون القندلفت فى حماســـه فى شـــد حبال الناقوس فى قوة حتى يتأرجح تأرجحا بالغـــا • وعلى الرغم من أن هؤلاء المتطوعين ، فيما يروى ، قد صعقتهم البروق فماتوا فى أثنـــاء قرع الأجراس ، الا أن غيرهم لم يجبن عن أن يفعل فعلهم • بل ان الأطفال فى هـــذه المناسبات يحملون فى أيديهم أجراسا صغيرة مصنوعة من الرصاص أو من أى معـــدن آخر ، ومزينة بأشـــكال على هيئـــة أصابع القديسين ثم يأخذون فى دقهـــا بعـــد أن تكون كنيسة « ماريا لورينتو » التى تقـــع فى « شتايرميرك » أو فى « ايفسيديلن » قـــد باركتهـــا • وقـــد كان التابعون فى ظـــل بعض النظم الاقطاعية ملزمين بدق أجراس الكنيسة فى مناسبات عـــدة وبصـــفة خاصـــة فى أثنـــاء العواصـــف الرعـــدية ••

لقد كانت النواقيس تقـــدس فى خشـــوع ، كما كان الاعتقاد الشائع انها قـــد عمدت بواسطة الكهنة • ومن المؤكد أنها كانت تسمى بأسماء وتغسل وتبارك وتدهن بالزيت المقدس لكى تستطيع أن « تبعد الأشباح الشريرة وتطردها » وكثيرا ما تشير الكتابات المحفورة عـــلى الأجراس الى المقـــدرة التى تستكن بالناقوس وتمكنه من طرد الزوابع والبرق والرعـــد • وقـــد يجرؤ البعض على نســـبة هـــذه القـــوى للنواقيس نفسها ، فى حين يتضرع البعض الآخر الأكثر تواضـــعا الى الله لكى يخلصـــهم من هـــذه الكوارث ، فهناك ناقوس فى « هازلين » قـــد حفرت عليه الكلمات التالية بالحروف اللاتينية وهى « ســـيدى المســـيح خلصـــنا من البرق والرعد والعواصف » • ويخبرنا «بينانت» الرحالة والباحث فى الآثار القديمة الذى عاش فى القرن الثامن عشر ، فى معرض حـــديثه عن بئر القديس « فينفريـــد » فى « فلينتشاير » فيقول : « لقد مســـح ناقوس من نواقيس الكنيسة تكريما للكنيسة • اننى لا أعرف أسماء الذين عينهم الكنيسة آباء أو أمهات بالتعميـــد ، هؤلاء الذين كانوا فى العـــادة من الأثرياء ولكن الذى أعرفه أن هؤلاء

كانوا يمسكون بحبل الناقوس عند الاحتفال بالتعميد ؛ كما يسمون الناقوس باسم • وعند ذاك يأتى الكاهن وينثر الماء المقدس على الناقوس ويعمده باسم الأب والابن والروح القدس ؛ كما يكسوه برداء جميل • وبعد هذا يقدم هؤلاء الآباء والأمهات وليمة كبيرة ؛ كما يقدمون المنح القيمة التى يتسلمها الكاهن باسم الناقوس • فاذا بورك الناقوس على هذا النحو ؛ فانه يكون بذلك قد اكتسب المقدرة الخارقة على تهدئة العواصف عندما يقرع ؛ وعلى تعطيل الرعود وطرد الأرواح الشريرة • وكثيرا ما كانت تنقش الكتابات على مثل هذه النواقيس المقدسة • ومن بين هذه الكتابات العبارة التالية :

Sancta Wenefreda, Des hoc commendare momente
Ut pietate sua nos servet ab hoste cruento

كما كتب أسفل ذلك

Protege prece pia quos convoco, Virgo Maria

على أن العالم اليسوعى الأب « مارتين ديلريو » الذى نشر كتابا قيما عن السحر فى مطلع القرن السابع عشر ؛ أنكر فى سخط موضوع تعميد النواقيس ؛ على الرغم من أنه اعترف أنها كانت تسمى بأسماء القديسين وأن أصحاب السلطان الكنسى كانوا يباركونها ويدهنونها بالزيت المقدس • أما أن نواقيس الكنيسة تدق لتقييد الأرواح الشريرة كل التقييد ؛ ولتفادى العواصف التى تثيرها القوى المعادية للانسان ؛ أو للعمل على اخمادها ؛ فهو ؛ من وجهة نظر العالم اليسوعى ؛ اعتقاد مصدره التجارب اليومية التى تبدو واضحة للعيان بحيث يتعذر انكارها • ولكن هذه الأعمال الخارقة من ناحية أخرى ترجع الى القداسة أو البركة التى تخلع على هذه الأجراس ؛ ولا ترجع الى شكلها أو الى طبيعة مادتها • فهو يرفض بازدراء ؛ رفضه للخرافات الوثنية ؛ فكرة أن الصليل الذى تحدثه آلة نحاسية كفيل بأن يبعد الشياطين • كما أنه يسخر من تصور أن ناقوس الكنيسة يفقد كل خواصه العجيبة اذا سمته محظية القسيس

باسم (ذلك أنه يرفض كلية استخدام كلمة التعميد) • وقد هبط « بيكون » بتفكيره الى حد الاشارة الى الاعتقاد فى أن « صليل النواقيس القوى فى البلاد المأهولة بالسكان قد أبعد عنها الرعود ، وبدد هواءها الفاسد » • ولكنه فى الوقت نفسه يقدم تفسيرا طبيعيا لهذه الحقيقة المتصورة فيقول : « على أن هذا يمكن أن ينجم عن تخلخل فى الهواء ولا ينجم عن صليل النواقيس » ••

وبينما تمتلك كل النواقيس بدون استثناء وبدرجة واحدة لتلك الخاصية العجيبة فى العمل على تبديد الشياطين والمشعوذين ، كما تجنب الناس ، الى جانب ذلك ، أضرار الرعود والبروق ، فان بعض النواقيس كانت تتميز عن غيرها فى درجة فعاليتها فى استخدام قواها الخيرة • ومن هذه النواقيس ناقوس القديس « آديلم » فى دير «ماليسربورى»، والناقوس الضخم « سان جرمان » بدير « سان جرمان » فى باريس • فهذان الناقوسان كانا يقرعان بانتظام لطرد أشباح الرعد والبرق • وقد كان لكاتدرائية القديس « باول » القديمة ، حق امتياز « قرع النواقيس فى أثناء حدوث الزوابع المرعدة والبرق » • على أن الأعمال الخارقة لنواقيس أوربا تتضاءل بالنسبة لأعمال نواقيس « كالوتو » التى تقع فى أمريكا الجنوبية ، لا من حيث أن نواقيس « كالوتو » كانت تتميز عن نواقيس أوربا بامتلاكها القوى خاصة بها ، ولكن من حيث كثرة حدوث العواصف المرعدة فى اقليم « أنديس » ، الأمر الذى هيأ الفرصة لنواقيس « كالوتو » فى ابراز مقدرتها التى تفوق مقدرة الأجراس العادية • وفى هذا المجال استشهد بشهادة عالم وبحار أسبانى مرموق سافر الى أمريكا الجنوبية فى النصف الأول من القرن الثامن عشر • فقد أخبرنا هذا العالم أن « بوبايان » أكثر تعرضا للعواصف المرعدة والبروق والزلازل • ولكن حيث أن « كالوتو » كانت تعد أكثر الجهات تعرضا للعواصف المرعدة والبروق ، فقد كان هذا سببا فى شهرة نواقيس

« كالوتو » التى يقرعها عدد غير قليل من الناس لعلمهم علم اليقين أنها تمتلك خاصية ضد البروق • وهناك فى الحقيقة حكايات كثيرة تحكى حول هذا الموضوع ، الى درجة أن الانسان قد يتحير فى تصديقها • وأشير الآن الى أكثر الحكايات انتشارا حول هذا الموضوع دون أن أتعرض لصدقها أو كذبها ، وانما أترك لكل شخص الحرية فى الحكم عليها • لقد كانت مقاطعة « كالوتو » التى تحتوى على عدد كبير من الهنود الذين ينتمون الى شعب يسمى « بايزيس » شاسعة الأرجاء فى الأزمنة السالفة • ثم حدث أن هؤلاء الهنود انقضوا على المدينة فجأة وتوغلوا فى طرقها ، وأحرقوا بيوتها وقتلوا سكانها • وكان من بين القتلى قسيس الأبرشية الذى كانوا يبغضونه بصفة خاصة ، لأنه كان يتلو المواعظ من الانجيل الذى لم تكن تعاليمه وشرائعه تتفق مع أسلوب حياتهم الهمجية • ومن ثم فقد كانت هذه المواعظ تكشف عن مساوىء وثنيتهم وأفكارها الحمقاء ، كما كانت تضع أمام أعينهم شرورهم الشائنة ، بل ان ناقوس الكنيسة لم يتخلص من هذا الشعور العدائى ، حيث أن رنينه كان يذكرهم بواجبهم فى الحضور والاستماع الى التعاليم الدينية • ومن ثم فانهم بعد أن قاموا بمحاولات عديدة فاشلة فى تحطيم الناقوس فكروا فى أن أفضل وسيلة فى التخلص منه هى دفنه تحت الأرض • وبذلك ينسون تعاليم الانجيل التى شاءت أن تسلبهم حريتهم •• وعندما سمع الأسبانيون فى الأحياء المجاورة « لكالوتو » بهجوم الهنود عليها سلحوا أنفسهم وانتقموا من هؤلاء المتمردين شر انتقام ، ثم أعادوا بناء المدينة ، وأخرجوا الناقوس من المكان المدفون فيه ، ووضعوه فى برج الكنيسة الجديدة • ومنذ ذلك الحين لاحظ السكان ، لشدة فرحتهم ودهشتهم • أنه عندما يقرع الناقوس تخمد العواصف بمجرد أن تثور • واذا لم يتحسن الجو كل التحسن ، فان العاصفة تختفى على الأقل لتظهر فى مكان آخر • ولما انتشرت أخبار هذه المعجزة فى كل مكان أخذ الناس يتوسلون الى رجال الكنيسة لكى يحصلوا على قطع من الناقوس يصنعون منها ألسنة لأجراسهم الصغيرة • حتى تكتسب

من الناقوس المعنى خاصيته المميزة له ، ومن ثم يمكنهم الاستفادة من الأجراس الجديدة كل الافادة فى بلد يكثر هبوب العواصف عليه فى صورة مفزعة • وهذا هو السبب فى شهرة « كالوتو » ••

ولم يقتصر استكشاف امكانية اخماد الرعود والصواعق عن طريق تلك العملية البسيطة وهى قرع النواقيس على الشعوب المسيحية فى أوربا وسلالتهم الذين استوطنوا العالم الجديد ، وانما كان يشاركهم هذا الاستكشاف بعض القبائل الوثنية البدائية فى أفريقيا • فقد قيل ان« التيسيين » يستخدمون الأجراس فى طرد شيطان العاصفة • فاذا تسببت الصاعقة أو النار التى تتفجر عنها فى ايذاء شخص ، فان هذا الشخص يظل يحمل أجراسا فى رسغه عدة أسابيع بعد هذا الحادث •• وحيثما وجد هذا الشخص أن المطر الغزير يهدد قومه ، لأن المطر يسقط على الدوام فى أوغندا مصحوبا بالبرق والرعد ، فانه يتجول فى القرية مدة ساعة مرتديا الأجراس المصلصلة فى رسغيه وحاملا فى يده عصا من نبات البردى ، ويصاحبه فى العادة أكبر عدد من أفراد أسرته لكى يقوموا بخدمته ، وان كان هؤلاء لا يقومون بالأعمال الأساسية • فاذا تسببت الصاعقة فى مقتل شخص ، فانه لا يدفن داخل البيت وفقا للمادة المتبعة وانما يحمل الى مسافة بعيدة ويوارى فى التراب بجانب نبع يقع عند حافة الغابة ، ويوضع على قبره كل الأوانى والأدوات التى كان يمتلكها فى حياته • كما تغرس المعازق على سبيل الضحية لاله الصواعق ، عند باب الكوخ الذى هوت عنده الصاعقة الذى أصبح حطاما بفعلها ، وتترك هناك لبضعة أيام • ومن الطريف هنا أن هذه الرواية تشير الى فاعلية الأجراس والمياه الجارية معا وهى العقيدة التى انتشرت فى بعض خرافات الأوربيين القدماء ••

وحيث أنه لا يبدو أن قبيلة « باتيسو » قد تبنت هذه المعتقدات عن طريق المبشرين الأوربيين ، فاننا ننسب اليهم ميزة ابتداع عادة طرد شياطين العواصف عن طريق قرع النواقيس ، أو اخمادها عن

طريق وضـــع الأوانى والفؤوس فى الامكنة الخربة وعلى قبر من صعقته الصواعق • وكذلك يستخدم الصينيون الطبول ، التى تتفق فى أغراضها العملية مع النواقيس ، فى تجنب شرور الرعـــد ، وان كانت المناسبات التى يضرب فيها الصينيون الطبول تختلف عن مناسبات قرع النواقيس التى أشرنا اليها • فاذا مرض شخص بمرض الجـــدرى ، وظهـــرت البثور فى وجهـــه مـــدة سبعة أيام ، وكذلك اذا أرعـــد الرعـــد ، اختير أحـــد أفراد أسرة المريض لكى يأخـــذ فى ضرب الطبول التى تـــكون معـــدة لمثـــل هـــذه الطـــوارىء • ويعاون هـــذا الشخص شخص آخر من الأسرة فى ابلاغه بأن الرعـــد قد خمـــد ، لأن صوت الطبول القوى لا يمكن ضاربه من التمييز بين صـــوت الرعد وصـــوت الطبول • وقـــد قيل أن السبب فى ضرب الطبول هو منع بثور مرض الجـــدرى من الانفجار • ولكن هـــذا التفسير يقدمه الصينيون لاختفاء بثور المرض نتيجة ضرب الطبول ليس مقنعا فيما يرى الباحثون • ولكننا بمقارنة هـــذا التصـــور بالتصور الأوربى الســـالف الذكر ، نفترض أن الصينيين يتصـــورون أن انفجار بثور المرض يسببه أصلا شيطان الرعـــد الذى يمكن طرده عن طريق ضرب الطبول ••

واذا كانت القبائل الهمجية قـــد استطاعت أن تحقق غرض طرد الأرواح الشريرة عن طريق احـــداث الضجيج ، فهناك شواهد تدل على أنهم لم يرفضوا الوسائل الأوربية التى تحقق الغرض نفسه • وقـــد سجل اثنـــان من المبشرين كانا يعيشان بين ســـكان « بورت موريسباى » فى نيوغينا البريطانية ، نموذجا من هـــذه الوسائل التى استعارها هؤلاء الأهالى عن الأوربيين ، قالا : « فى ذات ليلة عندما هبت عاصـــفة رعـــدية ، سمعنا صوتا مزعجا فى القرية • وقد كان الأهالى يضربون الطبول ويصرخون فى حماسة لكى يطردوا أشباح العاصفة • ثم أخـــذت أصوات ضرب طبولهم فى الخفوت ، عندما بدأت العاصفة تهـــدأ • وعند ذاك شعر سكان القرية بالاطمئنان • وعلى هذا النحو كانوا يقومون ليلة السبت بطرد الأشباح التى تسبب المرض ويترتب

على ذلك وفاة عـــدد كبير من الأهالى • وعندما قرع ناقوس الكنيسة عندهم لأول مرة ، شـــكر الأهالى مستر لوويس لأنه أبعد عنهم عصابات الأشباح من داخل قراهم ، كما كانوا يفعلون هم أنفسهم عن طريق ضرب طبولهم • وقـــد سعدوا كذلك بنباح كلب لطيف كان يعيش فى بيت الارسالية (ذلك لأن الكلب الاسترالى الشرس لا ينبح) ، لأنهم تبينوا فى ثقة تامة أن الأشباح قـــد اضطرت إثر ذلك الى أن ترحـــل عنهم • ولكن الأشباح ألفت ، لسوء الحظ ، صـــوت قرع الناقوس ونباح الكلب • ومن ثم كان يتحتم على الصـــبية أن يتجولوا فى الليل وهم مسلحون بالأقواس والسهام لكى يصيبوا هذه الأشباح البغيضة • وكثيرا ما كانوا يفزعون الى الغابات والأحراش ليختبئوا فيهـــا » • ومعنى هـــذا أن أهالى « بورت موريسباى » البدائيين ، قد شاركوا العالم المسيحى ، « جون نزيتزيس » رأيه فى أنه ليست هناك وســـيلة لطرد الأشباح الشريرة ، أفضـــل من قرع النواقيس البرونزية ونباح الكلب ••

ويقوم بعض هنود « بوبيلو » فى أريزونا بطـــرد الســـحرة عن طريق قرع النواقيس ، وان كان من المحتمل أنهم استعاروا هـــذه العـــادة من المبشرين الأسبان ، لأنهم لم يكونوا يستعملون من المعادن حتى ذلك الوقت سوى الذهب والفضـــة ، أى أن استخدام النواقيس لم يكن معروفا لدى ســـكان أمريكا الأصليين قبـــل أن يفـــد اليهـــا الأوربيون • وقد وصف أحـــد الضباط الأمريكيين طريقة طرد الأشباح التى رآها رأى العين فى قرية من قرى « موكويس » التى تقع شأنها شأن سائر قرى هؤلاء الهنود الكثيرة ، على قمـــة ربوة تشرف عـــلى واد خصـــيب ، فقال :

« ان أهالى « موكويس » يعتقدون فى ســـذاجة ، فى الســـحر والسحرة ، فالهواء الذى يحيط بهم ، وفقـــا لتصورهم ، يعج بالأرواح الشريرة • ويطرد ســـكان « أورابى بى » هـــذه الأرواح الشريرة عن طريق ترتيل أناشيدهم الدينية وعن طريق قرع النواقيس • وقـــد

واتانى الحظ لأن أشاهد فى مطلع عام ١٨٧٤ م ، بمرافقة الجنـــرال « كروك » ، هـــذه الوسائل السحرية الغريبة التى قام بتأديتها أهالى تلك البلدة المنعزلة التى لا يكاد يعرفها الزائرون • وقـــد بدا لى وكأن سكان القرية جميعا قـــد تجمعوا • وبعد أن غنوا بصـــوت عال وبنغمة متحدية ترتيلة أو ابتهالا ذا ايقاع موسيقى يؤكد صـــليل الأجراس القوى ، تقدموا مسرعين فى صـــف واحـــد من أعلى قمة الجبـــل الى حدائق البرقوق التى تقع أسفله ، ووقفوا بعض الوقت عند أركان هذه الحدائق وهم يغنون فى نغمة واحـــدة عالية ويأخـــذون من الأشـــياء الموضوعة داخل الناقوس ما يساوى نقودهم • ثم صـــدرت اشارة من قائد المجموعة ، اندفعوا على أثرها الى الحدائق • وفى أقل من ساعة كانت ثمار الأشجار قد اقتطفت عن آخرها كما انتزعت فروع الأشجار التى حملها الأطفال والنساء الى قريتهم التى تقـــع فوق قمة الجبل » • والهـــدف من الرقص حول حدائق الفاكهة ، وكذلك ترتيل الأناشيد بصـــوت مرتفع ، ودق النواقيس بحماسة بالغة ، هو بدون شك طرد السحرة الذين كان الأهالى يعتقدون أنهم يسكنون بين فروع أشجار البرقوق ويتنعمون بالفاكهة اللذيذة ••

عـــلى أن استخدام الأجراس والطبـــول بقصـــد طرد الأرواح الشريرة كان مألوفا عنـــد كثير من الشـــعوب الأخرى التى لم تكن فى حاجة لأن تستعير من المسيحيين الأوربيين وســـائل هـــذا الطرد • « فالطبلة النحاســـية تعـــد الآلة الرئيســـية فى الصـــين التى تحـــدث ضجيجا قادرا عـــلى طرد الأشـــباح • وهـــذه الآلة النحاســـية تعد فى الحقيقة ملمحا مميزا للصـــينيين ، وهى تقرع فى ربوع الامبراطورية كل يوم ، وبخاصـــة فى الصيف عنـــدما تنشـــط عملية طـــرد الأشباح بسبب زيادة الوفيـــات • ويصـــاحب الضرب على الطبول النحاســـية الضرب على الصنج النحاسية والطبول المصـــنوعة من الخشـــب أو الجلود ، لأن كل هذا يزيد فى تأثير الطبول النحاسية • وكثيرا ما تستمر جماعات صغيرة من الرجال والنساء فى ضرب هـــذه الآلات مدة ساعات

متتالية ولا يعترض الجيران على ذلك أو يرفعون شكواهم بأنهم يفسدون عليهم نومهم بالليل • ربما كان السبب فى هذا هو ارتياح آذانهم لهذه الموسيقى البدائية • أو تقديرهم لهذا العمل الجليل الذى يقوم به بعض أفراد هذا الشعب الطيب مشكورين لاهتمامهم البالغ بخير العامة وسلامتها » • وتقام احتفالات طرد الأشباح فى جنوب الصين فى فصل الصيف القائظ ، عندما ينتشر وباء الكوليرا الذى يعزى انتشاره الى تحليق الشياطين غير المرئية فى الجو • ووظيفة هذه الاحتفالات هى طرد هذه الكائنات الشريرة من البيوت والمساكن • وكل هذا العمل تقوم به جمعية من الجمعيات • وتجمع تكاليفه عن طريق الاكتتاب • ويتصدر قائمة الدفع عادة الموظفون الكبار المحليون ، وهؤلاء الذين يدفعون لهذا الغرض مبالغ سخية • أما العمل الحقيقى فى طرد الأشباح فتقوم به مواكب من الرجال والصبية الذين يتجولون فى الطرقات ويقرعون طبولهم بصوت عال ، ويضربون بفؤوسهم وسيوفهم الأعداء غير المرئيين ، ويزعجونهم بقرع طبولهم وصليل أجراسهم وفرقعة مفرقعاتهم واطلاق وابل من رصاص بنادقهم ••

وفى « أنام » ، يعزف الشخص المكلف بطرد اشباح المرض من مسكن معين على عوده ، فى الوقت الذى يصلصل فيه بسلسلة نحاسية بربطها فى أصبع قدمه الكبير ، بينما يساعده مساعدوه فى قرع الطبول والآلات الوترية الأخرى •على أن الناس يتصورن أن صليل الأجراس يصدر من رقبة حيوان يمتطيه الاله ويأتى به مسرعا ليساعد المؤدى العازف • وتلعب النواقيس دورا كبيرا فى طقوس بورما الدينية • ويحتوى كل معبد من معابدهم على عدد كبير منها • ويبدو أن الناس يميلون الى الاستماع الى صوتها العذب ولحنها الجمهورى • وهم يقولون فى العصر الحاضر ، ان خواصها لا تمثل فى طرد الأشباح الشريرة بقدر ما تتمثل فى لفت أنظار الأشباح الحارسة بأنهم يتغنون بمدح بوذا ، ومن ثم فان المتعبدين يعلنون فى النهاية تقديسهم لبوذا وولاءهم لواجبه الدينى ، عن طريق قرع النواقيس ثلاث مرات •

على أننا نعتقد أن هذا التفسير يعد أحد الأفكار المتأخرة التى يبرر بها العابد المتقدم فى أفكاره ، بقاء شعيرة بدائية قديمة كانت قد نشأت أساسا لغرض أقل صقلا وجمالا من الغرض الحالى • وربما كان قرع نواقيس الكنائس فى أوربا أصبح محببا الى نفوس كثير من الأتقياء لجمال صوته وما يثيره فى النفس من دواع رقيقة ، كان يمارس فى الأصل لطرد الأشباح من بيوت المصلين ، وذلك قبل أن ينظر اليه بوصفه وسيلة لاستدعاء العابدين لكى يقوموا بتأدية صلاتهم فى أماكن العبادة المقدسة ••

وعلى كل فان استخدام شعوب آسيا الساذجة للأجراس بقصد طرد الارواح الشريره فى تلك الصورة البسيطة ما يزال يتبع عندهم حتى يومنا هذا • ففى أثناء الاحتفال الجنائزى الليلى الذى تقوم به قبيلة « ميشيمى » ، وهى قبيلة من قبائل التبت التى تسكن بالقرب من حدود أسام الشمالية ، يحمل الكاهن بطريقة غريبة أسنان ثمار البرقوق الملونة بألوان مختلفة ، كما يحمل الأجراس والقواقع . ويظل يرقص على هذا النحو بعنف بقصد طرد الأرواح الشريرة ، بينما تصلصل تلك الأشياء وتقعقع من حوله • وعند قبيلة « كيرانتى » وهى قبيلة تسكن وسط الهملايا وتقوم بدفن موتاها فوق قمم التلال ، « يتحتم على الكاهن أن يحضر الجنازة • وفى أثناء سيره مع جسد الميت فى طريقه الى القبر ، يقرع وعاء نحاسيا بعصا من وقت لآخر ، ويناشد روح الميت ، آملا أن يرحل فى سلام ليرافق الأرواح التى سبقته » • وربما كان القصد من قرع الوعاء النحاسى عند الاحتفال الجنائزى هو الاسراع برحيل روح الميت الى مقرها الأخير ، أو طرد الشياطين التى يمكن أن تعترض سبيله • وربما كان هذا السبب أو غيره يلائم تفسير عادة نساء اسبرطة فى التجول فى شوارع المدينة وهن يقرعن الأوانى عندما كان يموت ملك من ملوكهن • وعندما تنفصل زوجة من قبيلة « كافيروندو » ، وهى احدى قبائل البانتو التى تسكن وسط افريقيا ، عن زوجها وترحل الى أهلها ، فانها ترى أن من واجبها عندما

يتوفى زوجها أن تعلن الحداد عليه فى قريته • ولهذا الغرض فانها « تربط الجرس الذى يستخدم فى نداء قطعان الماشية على خصرها بحيث يتدلى من الخلف ، وتجمع صديقاتها ويسرن جميعا مهرولات الى قرية زوجها المتوفى بينما يصلصل الجرس المعلق فى خصرها بطريقة مثيرة طوال الطريق » • وربما كان القصد من صليل الجرس فى هذه المناسبة كذلك هو ضمان رحيل روح الميت فى أمان ، أو ربما كان الغرض من ذلك هو لفت نظر الميت الى ما تقوم به زوجته الأرملة حزنا عليه • ومن المألوف عند قبيلة « دياك » التى تقطن الأقاليم الجنوبية الشرقية فى بورنيو الهولندية ، أن تقرع النواقيس القرصية ليلا ونهارا طالما كان جسد الميت مسجى فى البيت • وتبدأ الألحان الحزينة بمجرد أن يلفظ الميت آخر أنفاسه • وعند ذلك تقرع أربعة نواقيس قرصية دقات مختلفة ومتتابعة ، بحيث يفصل بين دق ناقوس وآخر دقيقتان • وهكذا تظل تقرع النواقيس ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم • وقد قيل إنه ليست هناك دقات أكثر سحرا وتأثيرا على المستمعين ، بما فى ذلك أجراس النعى تسمع من الكنائس الكاثوليكية فى أوربا ، من هذه النغمات الحزينة التى تصدر من نواقيس الموتى هذه ، وهى ترن فى رتابة حتى يتلاشى صليلها عبر أنهار بورنيو العريضة ••

وعلى الرغم من أننا لا نعرف سببا لقرع قبيلة دياك للنواقيس فى هذا الجزء من بورنيو بصفة مستمرة بعد موت شخص ، الا أننا يمكننا أن نفترض أن الغرض من ذلك هو ابعاد الأرواح الشريرة ، لا استدعاء الأصدقاء المحزونين الذين يسكنون على بعد • اذ لو كان الغرض من ذلك هو مجردنشر نبأ الوفاة بين الأحياء المجاورة ، فما سبب قرع النواقيس على الدوام ليلا ونهارا ، طالما كان الميت ما زال يرقد فى بيته ؟ • كما أننا نعرف من ناحية أخرى أن طرد الشياطين فى بورنيو يتم عن طريق قرع الآلات المعدنية • وقد تحدث رحالة انجليزى قام برحلة فى شمال بورنيو عن ظروف إقامته فى مناسبة

من المناسبات فى بيت كبير من بيوت بلدة « دوزون » التى يسكنها حوالى مائة من الرجال مع أسراتهم فقال : « وعندما أرخى الليل سدوله ، انطلقت ألحان ذات ايقاع وأنغام غريبة ، من طنبور معدنى • فلما سألت عما اذا كان هذا نوعا من الطرب ، أجابوا بالنفى وشرحوا لى أن هناك رجلا مريضا ، وأنه يتحتم عليهم أن يعزفوا هذه الألحان حتى يبعدوا عنه الأرواح الشريرة » وهؤلاء الأهالى أنفسهم يقومون بطرد كل الأرواح الشريرة من القرية فى شىء من القدسية مرة فى السنة • وفى أثناء عملية الطرد تقرع النواقيس وتدق الأجراس لكى يولى الشياطين هاربين فى سرعة • وبينما يأخذ الرجال فى قرع النواقيس ودق الطبول تسير النساء فى مواكب من بيت لآخر ، وهن يرقصن ويغنين على ايقاع الصنج النحاسية التى يحملنها فى أيديهن ، وعلى صليل الأجراس النحاسية الصغيرة التى يربطنها فى شكل مجموعات فى معاصمهن • فاذا فزعت النساء فى طرد الشياطين من البيوت ، فانهن يفتشن أثرها حتى يسقنها الى شاطىء النهر حيث يكون فى انتظارهن مركب معد لحملهن الى ما وراء حدود القرية • ويزين هذا المركب بتماثيل لرجال ونساء وحيوانات وطيور مصنوعة من أوراق نخل الساغو • كما توضع فيه الأطعمة والملابس وأوعية الطهى • وبعد أن ينتقل هؤلاء المسافرات الروحانيات الى ظهر المركب ، تفك مرساته ، ويترك ليبحر فى مجرى النهر حتى يصل الى بعد سحيق فى النهر ويختفى بين الغابات عن الأنظار وبذلك تكون الشياطين قد ابتعدت بعيدا مع المسافرات ، ولا تعود مرة أخرى ، كما يأملون ذلك فى ضعف بالغ •

وعندما زار سير « هوج لو » قرية تقع على تل « سينجودباك » فى أغسطس عام ١٨٤٥ م ، استقبل باحتفال رائع بوصفه أول أوربى زار هذا المكان • وقد اشترك هذا الرجل الانجليزى بروح طيبة فى صلاة الشمس والقمر والصلاة « لراجا ساروك » ، حتى يكون محصول الأرز وافرا وانتاج الخنازير غنيا ، وحتى تنجب النساء

الذكور • وقد شاء هذا الزائر الانجليزى أن يزيد من مفعول هـذه الصلوات ، بأن أخذ يرمى بكمية صغيرة من الأرز الأصـفر الى أعلى بين فترات منقطعة بقصد لفت نظر ثلاثة من الآلهة فيما يبدو لمطالب عبادهم • وبعد أن اشترك سير « هوج لو » فى هذه العبادة المتواضعة على مرأى الناس أمام البيت ، رجع الى الشرفة حيث كان زعيم القرية جالسا • « فربط جرس الصتور حول معصمى وطلب منى أن أربط له بالمثل جرسا آخر حول معصم يده اليمنى • وبعـد هذا قـرعت النواقيس والطبول التى كانت تعلق بجوانب الشرفة • ثم ربط الزعيم جرسا صغيرا آخر حول معصمى ، كما أخذ الرجال العجائز يفعلون فعله وكل منهم يوجه الى كلمات لم أفهم فحـواها ، أو بالأخـرى يتمتمون — لأنفسهم بها • وكان كل شخص يدخل علينا يحضر معـه أوعية عديدة مصنوعة من البامبو ممتلئة بالأرز ، ويضيف عند وصوله جرسا الى الأجراس حتى أصبحت عندى اجراس عديدة للغاية • ثم طلبت منهم على سبيل المجاملة أن أربط سائر الأجراس فى معصـمى الأيسر ، اذا كان هذا لا يضر بالاحتفال ، وهذا ما فعلوه معى بحق » • وعلى الرغممن أن سير « هوج لو » لم يفسر لى هذا الأمر ، ومن المحتمل أنه لم يكن يعرف سبب خلع الأجراس على الزائر على هـذا النحو ، الا أنه يمكننا أن نفترض أن الغرض من هذا هو حفظ الأرواح الشريرة فى مأواها البعيدة ••

ويحمل الكاهن الباتارى فى « ميرازابور » ، وكذلك كثير من الطبقات المتنسكة فى الهند ، الأجراس والخشاخيش المصـنوعة من الحديد ، ويهزونها فى أثناء سيرهم بقصد أفزاع الشياطين • ولهذا الغرض نفسه، فيما يبدو ، ترتدى طبقة معينة من الكهنة الشياطين التى تعيش بـين قبيلة « جوند وتعرف باسم « أوهيالسى » الأجراس على الدوام • ومن المحتمل أن مثل هذا الدافع يكمن وراء عادة تعليق الأجراس ، حيثما انتشرت هـذه العادة ، فى أجـزاء مختلفة من جسم الانسان بخاصة فى رسغ القدم وفى المعصم والرقبة ، سواء اقتصر هذا التعليق

على مناسبات معينة أو دام لفترات طويلة • وقد نفترض أنه كان يظن فى الأصل ان صليل الأجراس يحمى حاملها من شرور الغيلان • ولهذا السبب ، فانه من المألوف أن يرتدى الأطفال فى الأقاليم الجنوبية من بلاد الصين أجراسا صغيرة • أما فى الأقاليم الشمالية ، فانهم يرتدونها فى قلة • كما تحمل نساء نابوليتان حليا من الفضة تتدلى منها أجراس صغيرة على ملابسهن بوصفها تعويذة تحرسهن من الأعين الشريرة• ويقوم اليزيديون الذين يعتقدون اعتقادا قويا فى قوة الشياطين ، باحتفال فى نهاية أعياد الحج • وهم يعتقدون أن هذا الاحتفال يبعد الذئب الأسحم عن الجماعة المتدينة • وفى هذا الاحتفال يأتى رجل عجوز ويخلع عنه ملابسه ويلبس جلد نعجة كما يلبس حول رقبته قرطا من الأجراس الصغيرة ، وعلى هذا النحو يزحف حول الحجاج المجتمعين ويحدث صوتا يقصد به تقليد ثغاء الماعز • ويعتقد الأهالى أن هذا الاحتفال يطهر الجماعة ، وان كان يحق لنا أن نفترض أن هذا التطهير يحدث عن طريق احاطة المؤمنين بسياج روحانى لا يستطيع العدو أن يخترقه مهما تكن قوته • ومن المحتمل ان الكاهن من قبيلة « باداجا » يكون مدفوعا بهذا الدافع عندما يربط أجراسا فى أرجله قبل أن يحاول المشى بقدمين عاريين فوق جمرة متوهجة فى حفرة ، وذلك فى أثناء الاحتفال الذى يقام لمباركة المحصول ••

وكثيرا ما يستخدم سكان افريقيا الأصليون الأجراس بهدف طرد الأرواح الشريرة • ولسنا فى حاجة لأن نفترض أنهم كانوا يصطنعون هذه العادة على الدوام أو فى العموم ، نقلا عن الأوربيين ، حيث أن شعوب افريقيا السوداء كانت تعتقد منذ القدم فى وجود الأرواح ، كما كانت تعرف المعادن • ومثال هذا أن سكان « ساحل سليث » الذين يتحدثون اللغة « اليووبية » يعتقدون أن هناك أرواحا شريرة بعينها تسمى « أبيكوسى » تسكن الغابات والأماكن الخربة • فاذا قتلها الجوع ، فانها تبحث عن ملاذ لها من الجوع فى جسم الانسان • ولهذا فانها تنتظر فترة حدوث حمل للمرأة ، وتتسلل مع الجنين فى رحم

المرأة • فاذا ولد مثل هؤلاء الأطفال ، أصابهم الهزال لأن الأرواح الجائعة تستهلك أفضل غذائهم المخصص لهم • ولكى تخلص الأم الطفل من هذا الكائن المتطفل المزعج ، فانها تقدم له طعاما بوصفه ضحية • وهى تنتهز فرصة انشغاله بالطعام ، فتعلق فى رسغى الطفل اجراسا صغيرة وأساور من الحديد ؛ كما تعلق فى رقبته كذلك اقراطا من الحديد • ويعتقد الأهالى أن قعقعة الحديد ورنين الأجراس يبعد الأرواح الشريرة عن الطفل ، ومن ثم فقد أصبح من المألوف رؤية الأطفال وأرجلهم مثقلة بالحلى المصنوع من الحديد • ومن المألوف كذلك عند قبيلتى باجندا وبانييورو اللتين تسكنان فى وسط افريقيا أن يحمل الأطفال الذين يتعلمون المشى ، اجراسا صغيرة تربط فى أرساغهم • والسبب الذى يقدم لتفسير هذه العادة ، هو أن الأجراس تساعد الطفل على المشى أو أنها تقوى رجليه • ولكن ربما كان الدافع الأساسى هو أبعاد الطفل الصغير فى تلك الفترة الحرجة عن انظار الأرواح الشريرة • ومن المحتمل ، بناء على هذا الدافع نفسه ، أن يحمل ولدا كل توأم فى قبيلة باجندا أجراساً فى ارساغهم فى أثناء الاحتفالات الطويلة التى تؤدى باتقان ، وفقا لما تفرضه معتقدات هذه الشعوب الخرافية على الوالدين فى مثل هذه الظروف • وفى هذه الاحتفالات يتحتم على كل من الأب والأم أن يضربا طبلة خاصة على الدوام ليلا ونهارا ••

وعندما تضع الام ابنها فى قبيلة « بوجو » التى تسكن شمال الحبشة ، فان قريباتها يشعلن النار عند باب بيتها ، ويسرن ببطء حول النار ، فى الوقت الذى تقرع فيه الأجراس فى قوة كما تهز فروع أشجار النخيل ، وذلك بهدف افزاع الأرواح الشريرة وابعادها • كما روى أن أفراد قبيلة « جوند » فى الهند « يقرعون على طبق من النحاس عند ميلاد الطفل حتى يتغلغل الصوت الى آذان الطفل ، فلا يسمع ما دونه من الأصوات » • ويبدو أن هذا السبب الذى قدم تفسيرا لهذه العادة ليس هو السبب الأصلى ، أما السبب الرئيسى فيما يبدو ، فهو حماية

الأم وطفلها من شر الأرواح الشريرة ، وذلك عند سماع هذه الأرواح الأرواح لأصوات قرع النحاس ، وهو نفس السبب الذى قدم لاتباع قبيلة « بوجو » لهذه العادة • وقد قيل كذلك أن الكوريتيين فى الاسطورة الاغريقية كانوا يرقصون حول الطفل زيوس ، وهم يضربون الدروع برماحهم حتى يعلو ضجيجها فوق صوت الطفل ، فلا يجتذب صوت الطفل أباه الشرير « كرونوس » الذى كان من عادته أن يلتهم أولاده بمجرد ولادتهم • ويمكننا أن ننتهى من هذا الى أن هذه الأسطورة الاغريقية تتضمن بقايا عادة قديمة كانت تتبع بقصد حماية الأطفال من الأسباب الكثيرة التى تؤدى الى وفاتهم ، وهى تلك الأسباب التى يعزوها الانسان البدائى الى وساطة الأرواح الشريرة الخطيرة - ويمكننا أن نفترض ، على سبيل تقديم مزيد من الايضاح ، أنه عندما كان يولد الطفل فى الزمن القديم ، فان الأب وأصدقاءه كانوا ينزعون الى تسليح أنفسهم بالسيف أو الرمح والدرع ثم يرقصون رقصة الحرب حول الطفل ، وهم يضربون الدروع بسهامهم أو سيوفهم حتى لا يستبين صراخ الطفل من ناحية فلا يجذب انتباه الأرواح التى تتجول بحثا عن الفريسة ، وحتى تفزع الشياطين وتبتعد عن مكان هذا الضجيج من ناحية أخرى • كما أنهم كانوا يلوحون بأسلحتهم ويصوبونها فى قوة فى الهواء ، حتى يلحقوا الهزيمة الساحقة بهؤلاء الأعداء غير المرئيين • وهذا الفرض تؤيده على أقل تقدير الموازنة التالية :

وصف كاهن أسبانى فى مطلع القرن الثامن عشر العادات التى يتبعها « التاجالوجيون » سكان جزر الفيلبين عند ميلاد الطفل فقال : « ـ ان الباتياناك » التى يسميها البعض الغيلان (التى ربما كانت من وحى تأليفهم أو أحلامهم أو تخيلاتهم) هى قرينة الشخص أو هى الشيطان الذى ألف أن يضايقهم • وهم يعزون الى هذه الكائنات ما يحدث للطفل من شرور فى أثناء ميلاده • والاساءة الى هذه الكائنات أو تهيئة الجو لهـا للانطلاق ، يجعلها تختبىء فى شجرة أو فى أى مكان بالقرب من البيت الذى تضع فيه المرأة وليدها • ولكى

يبطلوا عمل « الباتياناك » الشرير ، فانهم يخلعون ملابسهم، ويسلحون أنفسهم بالدروع والرماح وسائر الأسلحة الأخرى ، ويجلسون على هذا النحو فوق سطح البيت أو عند أسفله ، ويأخذون فى توجيه طعناتهم وضرباتهم فى الهواء ، كما يقومون بتأدية حركات وتلميحات أخرى لهذا الغرض نفسه » • وهناك رواية أخرى لهذه العادة تذكر أن الزوج وأصدقاءه يتسلحون بالسيوف والدروع والسهام ، وبهذا يكونون معدين لتوجيه ضرباتهم فى الهواء من فوق سطح البيت أو عند أسفله (ذلك لأن بيوتهم تشيد على أعمدة) ، وذلك بقصد افزاع الأرواح الخطيرة أو طردها ، حتى لا تؤذى الأم وطفلها • ويبدو أن هؤلاء الرجال المسلحين الذين يطردون الأرواح الشريرة عن الطفل المولود ، يشبهون ، فى قيامهم بتوجيه ضرباتهم بأسلحتهم فى الهواء ، الكوريتين البدائيين عند الاغريق القدماء ••

وهذه المعتقدات التى تتعلق بالأخطار التى يتعرض لها الأطفال من قبل الأرواح الشريرة ، قد أدت الى اتخاذ قبيلة كاشين فى بورما مثل هذه الاحتياطات لحماية الأم وطفلها • فعند هذه القبيلة ، « تقول القابلة لحظة ميلاد الطفل : إن الطفل يسمى كذا وكذا » • واذا لم تقل هذا ، فان روحا شريرا يسمى « نات » ، يبدأ هو أولا بتسمية الطفل ، الأمر الذى يتسبب فى هزاله ، بل فى موته • فاذا لم تتعرض الأم وطفلها للخطر ، قدم الطعام والشراب المألوف ، وسعد الأب بذلك • أما اذا تعسرت ولادة الأم ، فان هذا يكون دليلا على أن « النات » تمارس نشاطها ، وعند ذاك يستدعى العراف الذى يطلق طليه الأهالى اسم«تومزا»فيذهب الى بيت آخر فى القرية ويلتمس النصيحة من أشجار الخيرزان (تشيباوت) ، لتخبره عما اذا كان « نات » البيت هو الذى يقوم بهذا العمل الشرير ، أم أن « نات » الأحراش قام بطرد « النات » الحارسة ليمارس عمله فى حرية • وتسمى « نات » الأحراش « سون » ، وهى عبارة عن أرواح الأطفال الذين توفوا إثر ولادتهم ، وهم يبحثون بطبيعة الحال عن رفقاء لهم :

ولهذا فهم يدخلون البيت الذى تضع فيه الأطفال الذين توفوا إثر ولادتهم ، وهم يمسكون بالأم والطفل • فاذا أخبرت أشجار الخيزران العراف أن « نات » البيت هو الروح الثائر قام باسترضائه وتقديم الضحية له بالطريقة المألوفة • أما اذا أخبرت بأن « السون » هو الذى يسيطر على هذا الموقف ، فان العراف يتخذ عند ذاك اجراءات عاجلة ، فتطلق النيران من البنادق من حول البيت وفى الممرات التى تؤدى الى القرية ، وتصوب السهام أسفل البيت • كما يلوح بالسيوف أو السكاكين الكبيرة (دهاس) والشعلات النارية فوق جسم المرأة • وفى النهاية تصنع كومة من الخرق البالية ويوضع بداخلها الفلفل الحار وغير ذلك من المواد التى تنبعث منها رائحة نفاذة وتوضع أسفل البيت وتشعل فيها النيران • وبهذه الطريقة تطرد أكثر الأرواح عنادا واصرارا • وقد أخبرنا مبشر كاثوليكى عن هذه العادة نفسها التى تنتشر بين قبيلة « كاشين » فذكر أنه فى حالة الولادة العسرة ، فان هؤلاء البدائيين يتهمون « السدن » (وهم أرواح النساء اللاتى توفين فى أثناء الولادة) بسعيها فى قتل الأم ، ومن ثم فهم يقومون كما هو المألوف بطردها • ولهذا الغرض يتجول أفراد الأسرة فى كل ركن من أركان البيت ، ويلوحون بسكاكينهم وسهامهم ، ويحدثون كل صنوف الصخب • وكلما كانت الأصوات أكثر جلبة ، كانت أبعد فى تأثيرها • بل انهم يقفون الى جانب المريض وهم مجردون من ملابسهم لكى يفزعوا الأرواح الشريرة • كما أنهم يحرقون داخل البيت وخارجه أوراقا ذات رائحة نفاذة ويقرعون سيوفهم ، ويستمرون فى احداث الصخب فى الطرق الرئيسية وفى الغابة حتى يصلوا الى أقرب جرف حيث يرغمون « السون » على السقوط فيه ، وفقا لتصورهم ••

وعندما تعانى المرأة فى قبيلة « القلموق » من آلام المخاض ، فان زوجها ينشر شباكا حول الخيمة ويجرى هنا وهناك ، وهو يضرب فى الهواء بهراوته حتى يبقى على الأرواح الشريرة فى مأواها • و « عندما يولد طفل » ، عند قبيلة « نوجيا » التتارية ، « يذهب كل

فرد من أفراد القبيلة الى بيت المولود وهو يحمل أوعية يضرب عليها متصورا بذلك أنه يرغم الشيطان على الفرار ، فلا تكون له بذلك أدنى سلطة على روح الطفل » • وفى « بونى » ؛ وهى امارة فى جنوب سليبس ، « يصرخ الرجال عندما تعانى المرأة من آلام الوضع ، أو يطلقون النار من بنادقهم لكى يطردوا بذلك الأرواح الشريرة التى تحول دون ميلاد الطفل » • أما عند ولادة أمير من الأمراء ، وبعد أن تنفصل المشيمة عن جسم الأم ؛ « فان الناس يقومون بقرع كل الأدوات التى تستخدم فى طرد الشياطين ؛ « حتى تفزع الأرواح الصريرة وتهرب • ومن أجل هذا الغرض نفسه تقرع الطبول فى جزر « أرو » فى جنوب غرب نيو غينيا عندما تطول عملية الولادة بدرجة تثير الازعاج • ويعتقد سكان المناطق المجاورة لمجرى مائى بعينه يصب فى خليج بورتون عند بحيرة تنجانيقا ، أن روح هذا النهر يسىء الى الأم الحامل ساعة ولادتها طفلها • فاذا خيل لأم أنها تعانى من مكايد هذا الروح ، تحتم عليها أن تقدم الضحية له ، وأن تؤدى شعائر معينة • وعند ذلك يجتمع كل سكان القرية ويأخذون فى قرع الطبول بجوار الكوخ الذى ترقد فيه المرأة ويصرخون ويرقصون « لطرد الروح الشريرة » • وعندما يولد طفل عند قبيلة « سينجهاليز » فى سيلان « ترفع القابلة صوتها بصراخ يعلو صراخ الطفل حتى لا تتعرف أرواح الغابة على وجود الطفل وتسبب له الأذى » • وعلى هذا النحو كان الرومانيون القدماء يعتقدون أن المرأة بعد الولادة بصفة خاصة تكون عرضة لايذاء آله الغابة « سيلفانوس » ، الذى يتخذ طريقه الى البيت ليلا لكى يضايقها ويخطفها عنوة • ومن ثم فقد كان من المألوف أن يسير ثلاثة من الرجال فى أثناء الليل حول بيت المرأة ، وهم مسلحون بالفؤوس والمدقات والمكانس بصفة خاصة • ثم يقفون عند كل باب من أبواب البيت ، ويأخذ اثنان منهم فى ضرب عتبته بالفأس والمدق ، كما يقوم ثالثهم بكنسها • وهم يعتقدون بذلك أنهم يحمون الأم من هجمات آله الغابة ••

ويحق لنا أن نفترض على هذا النحو ؛ أنه كانت من عادة الاغريق القدماء ، أن يقوم الرجال المسلحون بحماية النساء وقت الوضع من الأرواح الشريرة ، وذلك بأن يرقصوا من حولهم وهم يقرعون دروعهم بسهامهم وسيوفهم • وربما ظلت الأسطورة تحكى عن هذه العاده حتى بعد اختفائها بزمن طويل ، عندما وصفت الكورتيين ، وهم يؤدون تلك الشعيرة حول مهد الطفل الصغير زيوس ••

على أنه ينبغى علينا أن نعود مرة أخرى بعد هذا الاستطرداد ، الى عادة استخدام الأجراس بوصفها وسيلة لتجنب ايذاء الشياطين والأرواح • فمن عادة السونارين الذين يشتهرون بصياغة الذهب والفضة فى المقاطعات الوسطى فى بلاد الهند ، أن يرتدى الأطفال وصغار البنات خلاخيل مجوفة بداخلها أجراس تصلصل • وبعد أن تتزوج امرأة وتلد عددا من الأطفال ، فانها تترك الخلخال المجوف وترتدى خلخالا مصمتا • وقد قيل لنا فيما بعد ان السبب فى ارتداء البنات هذه الخلاخيل المجلجلة هو التعرف على مكان تجوالهن ، وبذلك يمكن الحيلولة بينهن وبين ايذاء الشياطين فى الأماكن المظلمة • ولكن السبب الحقيقى فيما يبدو هو أن هذه الخلاخيل كانت تستخدم فى بث الذعر بين الأرواح ،• كما أنه من عادة قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى، أن تتسلم البنت من عشاقها والمعجبين بها قبل اجراء عملية الطهارة لها ،أجراسا كبيرة على سبيل السلفة ، وهى ترتدى عادة هذه الأجراس حول رسغها ، ثم تقوم بردها بعد انتهاء هذه المناسبة المقدسة • وفى العادة تتسلم الفتاة التى تنتمى الى عامة الشعب ، عشرة أجراس أو عشرين جرسا وترتديها جميعا عند اجراء عملية الطهارة لها • وبمجرد أن تنتهى عملية الطهارة ، تقف الابنة وتقرع الأجراس حول رأسها ، ثم تخرج وتقابل عشيقها وترد اليه الأجراس المعارة • فاذا كنا الآن نعرف السبب فى حمل المحاربين من قبيلة ناندى للأجراس فى أرجلهم ؛ فإنه يبدو لنا الآن أننا قد تعرفنا على سبب ارتداء الفتيات للأجراس عند الطهارة • واذا كنا لا نشك فى المعلومات المؤكدة فى هذا

الصدد ، فاننا يمكننا أن ننتهى الى أن الأجراس كانت تعد تعويذة تحمى كلا الجنسين من أخطار القوى الخارقة التى يتعرض لها كل منهما تعرضا مؤقتا أو دائما ، وفقا للخصائص التى تتميز بها هذه القوى ..

ويخشى الأهالى فى الكنغو أن تسكن الشياطين أجسامهم عن طريق أفواههم عندما يتناولون شرابا . ومن ثم فهم يستعملون فى هذه الظروف كل الوسائل التى تبعد عنهم هذه الكائنات الخطيرة . واحدى هذه الوسائل هى أن يقرعوا جرسا عند كل جرعة شراب يشربونه . وقد لوحظ أن الزعيم عندهم يشرب عشرة أوعية من الجعة فى جلسة واحدة ، وكلما رفع الوعاء الى شفتيه قام بقرع الجرس ، فى الوقت الذى يلوح فيه صبى برمح الزعيم ، زيادة فى الحيطة ، أمام صاحب المقام الرفيع ، لكى يمنع الشياطين من أن تتسرب الى معدته مع شربه الجعة . ويحمل الناس فى هذه المنطقة كذلك الأجراس التى يخلع عليها الرجل الفتيشى خاصية سحرية ، فتكون بمثابة تعويذة تمنع عنهم الحمى ووباء الجراد ، بل من الممكن أن تجعل حاملها غير مرئى . ومن المألوف عند شعب « باكيريوى » ، الذى يسكن « أوكيريوى » ، وهى أكبر جزر بحيرة فيكتوريا نيانزا ، أن يعلقوا جرسا على باب كل بيت . ويتحتم على من يدخل البيت أن يقرع الجرس بأن يضربه برأسه ، لا لكى يعلن قدومه لأصحاب البيت ، كما نفعل نحن الأوربيين ، بل لكى يطرد الأرواح الشريرة وسحر المشعوذين عن البيت . وفى غرب افريقيا يساعد صليل الأجراس على زيادة الصخب الذى يصاحب طرد الأشباح عن الرجال الذين يتملكونهم فى مواسم معينة ..

ومن أهم ما يميز الكهنة والأنبياء والأطباء فى افريقيا : حملهم للأجراس أو ارتداؤهم اياها فى أثناء احتفالاتهم المقدسة التى تهدف الى طرد الشياطين أو الشفاء من الأمراض أو استقبال وحى الهى . فالسحرة فى قبيلة أكامبا التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، على سبيل المثال ، يحملون أجراس القطيع بعد تعليقها فى سير من الجلد ،

ويقومون بقرعها فى أثناء تنبؤهم بالغيب . ذلك أنهم يتصـــورون أن صليل الجرس يلفت انتباه الأرواح اليهم • وقد أخبر أحد أطبائهم السيد « هوبلى » ، أنه رأى فى رؤياه أن الاله يأمره باحضار جـــرس بعينه • فقام هذا الطبيب اثر ذلك برحلة خاصة الى قبيلة « كيكويو » ليشترى هذا الجرس • وعند عودته أقام وليمة من الجعة ، وذبـــح ثورا مخصيا لكى يسترضى الأرواح • وتتميز طبقة الكهنة (لوباس) عند قبيلة « جالا » التى تسكن فى شرق أفريقيا عن طبقة العرافـــين (كاليجوس) • ولكن كلا من الكهنة والعرافين يحملون أجراسا فى أثناء الاحتفال بطقوسهم الغريبة • ويتســـلح العرافون فضـــلا عن ذلك . بسوط ، وهم لا يترددون فى ضرب المريض به برفق بقصد طرد الشيطان الذى يعتقدون أنه يتملك المريض • ومرة أخرى نجد أن الطبيب الساحر عند « الغانيين » الذين يسكنون فى « جابون » يحمل عددا من الأجراس الصغيرة التى يربطها فى رسغيه ومعصميه عندما يقوم بالكشف عن عراف من العرافين • وهو يعلن صراحة أن أصوات الأجـــراس ترشـــده الى الى الكشف عن هذا المذنب من بين زحام المتفرجين المضطربين القلقين • وتعتقد قبيلة « هو » التى تسكن فى « توجولاند » فى غرب افريقيا . فى وجود نوع من الأرواح الكادحة أو الأرواح الماهرة التى تعمـــل بطريقة معجزة على زيادة عدد الأصداف الصفراء فى حجرة كنوز رجل من الرجال كما تعمل على زياد محاصيله • واسم هذه الأرواح الخيرة « سولوى » ومن الغريب حقا أن قبيلة « هو » تطلق هذا الاسم بعينه على أصـــوات الأجراس الصغيرة التى يعلقها كهنتهم بأهداب أرديتهم، كما كان يفعـــل كهنة اليهود فى العصر القديم ؛ كما يقال ان اله بحيرة البرت اتصل « بالبانييوريين » الذين يسكنون افريقيا الوسطى عـــن طريق وساطة نبية كانت تعلق المحار الأصفر والأجراس الحديديـــة الصغيرة بأهداب ردائها الجلدى • وقد كانت المحارات والأجـــراس تتماوج وهى تسير كأمواج البحيرة • كمـــا تمثل اله الرخاء . عند هذه القبيلة نفسها ، واسمه « وامالا » ، وهو المسئول عن زيادة نسل الرجال وقطعـــان المـــاشية والمحصول ، لنبى من الأنبياء ، فأخذ النبى ينطق

بالنبوءات باسم الآله • وعندما تملك هذا الشخص الوحى ، ارتـدى الأجراس فى رسغيه ، كما ارتدى جلد عجلين أبيضين حول خصره بعد أن علق فيـه مجموعة من الأجراس الصغيرة ••

وربما كانت هذه الأمثلة كافية لتبين لنا كيف أن عادة اسـتخدام الأجراس فى الطقوس السحرية والدينية كانت تنتشر على نطاق واسع ؛ وكيف كان النـاس يعتقدون فى كثير من بقاع الأرض بأثر صلصـلة الأجراس فى طرد الشياطين • ويبدو من الأمثلة القليلة التى قدمتهـا آنفا ، أن بعض الشعوب كانت تعتقد فى بعض الأحيـان أن صليل الأجراس ، لم يكن يهدف الى طرد الأرواح الشريرة بمقدار ما كان يهـدف الى اجتذاب الأرواح الطيبة أو الحارسة • ولكن استخدام الآلات بقصد اجتذاب هذه الأرواح الطيبة أقل وضوحا فى الطقوس البدائية من استخدامها بقصد طرد الأرواح الشريرة • وربما كـان استخدام الأجراس بقصد اجتذاب الأرواح الطيبة ، لا بقصد طـرد الأرواح الشريرة ؛ يرتبط بمرحلة متقدمة من الوعى الدينى ؛ عندما تغلبت الثقة فى الخير على الخوف من الشر ، وعندما لم تعد القلوب التقية تنزع الى الهروب من الشيطان ، بقدر ما كانت ترغب فى الاقتراب من الله • وربما سـاعد ما أشرنا اليه فى هـذا الفصـل من عادات ومعتقدات ؛ على استجلاء العادة اليهودية التى بدأنا الفصل بالحديث عنها ، بل وتفسيرها ؛ سواء اعتقد العبريون فى أن الكاهن الذى يخطو فـوق عتبة المـكان المقدس بردائه البنفسجى ، كان يقـوم بطرد الشـياطين أو يعمل على جذب انتباه الرب برنـين الأجراس الذهبية وصليلها ••

تـم بحمـد الله